بيننا وبينكم كما قال لورد كرومر ؛ يومئذ لا تنفع المحجج ولا تفيد المظاهرات ولا يغني الاعتصاب شيئا الا غناء قد يكون اثمه اكبر من نفعه

قد رأيتم العبرة في العسرة المالية التي صدمت البلاد في هذه السنين الاخيرة، ورأيتم كيف أصبح أصحاب الاراضي الواسعة أحير من الضب ، واعجز من أمير الحرب ، هذا ولم يكن أصحاب الاموال في أوربا متحدين على تعسير حربكم حربا اقتصادية ، وهل يعجز دهاة السياسة الانكليزية أن يحملوهم على هذا الاتحاد في يوم من الايام ؟

لكل قطر طبيعة واستعداد والقوة الطبيعية أنفع من القوة المتكلفة ، والامة المصرية مستعدة لمغالبة كل أمة من أمم الارض ، بقوتي الثروة والعلم ، وليست مستعدة لمقاومة دولة كبيرة بالحرب ، ولاسيما في هذا العصر ، فليكن اعتمادها على ما هو قريب من استعدادها ، وعناية الله كافلة لها نيل مرادها ،

تأريخ التجنيد العثماني (*

كان قانون أخذ العسكر موضوع جلسة يوم السبت في مجلس الامة كما يراه المطالع في باب هذه المذكرات من هذا العدد . وقد صدّره قومسيون العسكرية في المجلس بمقدمة تأريخية باحثة عن طرق التجنيد في الدولة منذ تأسست الى يومنا هذا فأحببنا اقتطاف المهم منها لمحبي التأريخ

« اذا استثنينا الرومان قلّ ان نصادف في تأريخ عسكرية الامم اشارة لوجود اجناد دائمية منتظمة . وفي القرون الوسطى كان هذا الامتياز للعثمانيين وبعد قرن من ذلك أسس شارل السابع ملك فرنسا أجنادا دائمية

« كانت أجناد العثمانية الى سنة ٧٣٠ هـ . مؤلفة من المتطوعين وعبارة عن جيش موقت يقبل فيه كل راغب من الشبان . لم يكن لباس الجند واحدا بل كان

---

*) نقلناها من جريدة الحضارة التي تطبع بالاستانة

كل واحد يلبس مايشتهي ويحمل السلاح الذي يريد . وكان الفرسان اسمى مقاما من الرجالة . والاسلحة يومئذ عبارة عن الحسام والسنان والترس والقوس . وكان هذا الجيش المتطوع يدعى « آقينجي » (معناه السيل الجارف) ويوجد غير هذا الجيش جند يدعون العساكر الخاصة يقيمون دائما في قاعدة الحكومة

« فلما اتسعت الفتوحات لم يبق من الممكن الا اكتفاء بذلك الجيش القليل العديم جمعه وترتيبه ومست الحاجة الى ايجاد صنوف الرجالة ففي عهد السلطان اورخان اشار أخوه الوزير الاعظم علاء الدين باشا وخليل باشا الجاندارلي وريثا خطة لايجاد عسكر دائمي فوضعوا أساس الجند المسمى « يكيجرية » (معناه العسكر الجديد وقد عربها العرب بكلمة انكشارية) وأوجبوا أن يكون الزي العسكري مطردا ولوا في هذا الجيش من أولاد النصارى الذين ادخلوهم في طاعتهم

قد نشأ بين الانكشارية هؤلاء كثير من القواد البرية والبحرية الذين لايبلى ذكرهم ولم يكن في ذلك العهد جيش يضارعه عند أمة من الأمم .

وكان كبيرهم الاعظم يلقب آغا وهو في مقام ناظر الحربية . ومن عاداتهم تقديس القدور التي يطبخ بها وهي تعطى لهم من قبل السلطان ويجتمعون حولها

* * *

وكان من يبرز على أقرانه في الحرب والطعان من الرجالة والفرسان يكافأ على ذلك متى بلغ الاربعين او الخامسة والاربعين من العمر فيعطى من البلاد المفتوحة خراج مقاطعة مثل لواء أو قضاء أو خراج قرية واحدة فقط فما كان من الاقطاع تبلغ وارداته من ٣٠٠٠ الى ٢٠٠٠٠ أقجه يسمى تيمارا . وما كانت وارداته من ٢٠٠٠٠ الى ١٠٠٠٠٠ أقجه يسمى زعامة فكل ذي تيمار عليه ان ينفق عن حساب كل ٣٠٠٠ اقجة على راجل واحد . وكل ذي زعامة عليه ان ينفق عن حساب كل ٢٠٠٠٠ أقجة على فارس قادر تام اللأمة . فاذا وقعت حرب كان هؤلاء مع رجالهم المكلفين بنفقاتهم حاضرين مع الملك . ويسمى هؤلاء بالفرسان ذوي الاطيان (الاراضي) وقد بلغ عددهم في عهد السلطان سليمان القانوني مئة وخمسين ألفا وفي عهد محمد الرابع بلغ عددهم مئة وتسعة وسبعين ألفا ومئتين

أما عدد العساكر في تلك الاعصار فكان هكذا: القپوقول ٧٤١٤٨ والفرسان أولو الاطبان مع فرسان الألايات الممتازة ١٧٤١٩٢ والعساكر البحرية ٥٥٧٢ المجموع ٢٦٣٩١٢ وأما القول بأن القانوني دخل بلاد المجر بثلاثمائة الف مقاتل معهم ٣٠٠ مدفع فهو من روايات المؤرخين الاجانب

في بدء احداث الانكشارية كان الواحد منهم يعطى في اليوم اقجه واحدة والاقجه سكة عثمانية فضية وزن ثلث درهم فضة من عيار التسعين ثم تنزل عيارها فاقتضى ذلك ان يزاد لهم الى ثلاث اقجايات وفي أواخر القرن العاشر زيدلهم الى خمس وفي القرن الحادي عشر زيد لهم سبع ثم زيد لهم في أواخر امرهم الى سبع وعشرين اقجه في اليوم ولم يكن من مساواة في العطاء بل كان بعضهم يأخذ أكثر من بعض . أما آغاتهم فكان يأخذ خمس مئة اقجه في اليوم

كان هذا الجيش اسمى جيش في الدنيا ولم يكن يؤتى من فتح الا الى فتح آخر حتى رفع مركز السلطنة العثمانية الى الذروة العليا التي امتازت بها بين الدول ولكن امر الزمان عجيب فان هذا الجيش الذي كان سبب هذه النعم العظيمة مالبث ان طغى واستكبر ، واستولى عليه الغرور والاشر ، فدخل عليه الفساد من كل باب ، وتوصل اليه المكروه بجملة اسباب ، فعاد شؤما على الدولة بعد ان كان يمنا ، وبؤسا بعد ان كان نعمى ، حتى بلغ بعد القرن الثاني عشر مبلغا من تفكك الروابط وشيوع الفوضى وقلة الطاعة وكثرة عدم المبالاة ليس وراءه مبلغ فاصبح بعد تلك البسالة العظيمة التي امتاز بها يكثر فيه الفارون من مواطن الزحف حتى من امام الجيوش التي هي اقل منه عددا

وكانت العسكرية في أوربا قد بدأت تخطو خطوات واسعة في درجات الكمال فيومئذ صرفت وجوه الآمال عن مغالبة المخصوم بالهجوم والفتوح وبقيت الافكار مشغولة بأمر الدفاع عما في اليد لان القوة العسكرية اصبحت على وشك الاضمحلال البتة

جال هذا الامر في فكر سليم الثالث ونظر الى عاقبة امر الدولة اذا ظل زمام المدافعة بيد هؤلاء الانكشارية الذين كثر فيهم القتل واستولى عليهم الخطل فبدى

لهرأي ونهض له بقوة . ذلك أنه أحدث عسكرا على قواعد تناسب الزمان والمكان وجعل له عنوان « نظام جديد » وجمع من هذا النظام الجديد ثلاثين ألفا وعزم على الغاء الانكشارية . ولكن هذا النظام الجديد لم يستطع الوقوف أمام بأس الانكشارية الا خمس سنين ولم يتمكن سليم الثالث من تلك الامنية العظيمة التي كان يتقاضى الظفر بها بقاء الدولة

لكن الذي لم يتيسر لسليم الثالث تيسر لمحمود الثاني الذي رأى ان الغاء هذه العساكر العظيمة باصدار الاوامر ليس من الممكن وأن هذا الامر لا يتم الا بالتحيل والتشريد بهم فاستفتى في قتلهم على إثر تمرد وبغي وطغيان فأفتى فيه وتوسل الى اجتثاث هذه الشجرة من أصلها بما هدته اليه الفطنة المتوقدة وكان ذلك في يوم السبت في ١١ ذي القعدة من عام ١٢٤١ هـ - ١٧ حزيران ١٨٢٦ م

« وأما آغا الانكشارية حسين آغا فانه كان مقتنعا بفوائد النظام الجديد فاعطى لقب باشا ونصب صر عسكرا ولقبت العساكر الجديدة بالعساكر المحمدية المنصورة هكذا وضع أساس النظام الجديد لعسكريتنا وعلى هذا يكون عمر جيشنا الجديد سبعا وثمانين سنة هـ . يقسم تأريخ الجيش الجديد الى ثلاثة أدوار الاول دور اللّم والثاني دور القرعة والثالث دور التكليف العسكري . فالدور الاول من ١٢٤١ الى ١٢٦٠ أي عبارة عن تسع عشرة سنة كانوا يلمون العسكر ممن صادفوه من الشبان الاقوياء . لم يستأنس الناس في بدء الامر بهذه الطريقة لانهم كانوا قد تعودوا رؤية هيبة الانكشارية وانكروا من هذه الطريقة انها من سنن الافرنج

ولم تكن مدة التجنيد معينة أيضا وفي ١٢٤٤ - ١٢٤٥ وقعت الحرب بين الدولة والروس (التي انتهت بمعاهدة ادرنه) فكان من البديهي ان لا تظهر الثمرات المنتظرة من النظام الجديد لقصر المدة وفي تلك الاثناء اخذ خدمة الدولة المارشال مولتكه الذي ظفر في محاربة ثلاث دول في بحر ست سنين واطلع من امارة بروسيا الصغيرة امبراطورية المانيا العظيمة ولكن حالت الحوائل دون الاستفادة من خدمة هذا الرجل العظيم فان الدولة في تلك السنين كانت قد شغلتها حوادث وحروب الثورة

والبوسنه والهرسك والتبه دلتي ومحمد علي وكان عدد الجيش الجديد هكذا: العساكر المنتظمة ٨٠٠٠٠ والرديف ١٣٠٠٠٠ والعساكر البحرية ٥٠٠٠ الجميع ٢١٥٠٠٠ وكان سوى هؤلاء نحو من عشرة آلاف من الخيالة المنتظمة ونحو اربعة آلايات من الخيالة العتق .

واتوا بعد ذلك بمعلمين من المانيا فحصل اصلاح في ترتيب الجيش ولكن طريقة القسم كانت لاتزال على حالها فلذلك لم تصل الاصلاحات الى الدرجة المطلوبة ودام الامر على هذا المنوال الى ١٢٦٠ ففي هذه السنة وضع اساس جديد للدولة بهمة رشيد باشا الكبير وقرئ خط كلخانه الذي يتضمن هذا الاساس فدخلت عسكريتنا الجديدة في دورها الثاني

من هذا التاريخ ألغيت طريقة القسم ، ووضعت طريقة القرعة ، وحددت مدة العسكرية ، ووضع قانون لاخذ العسكر على هذه الطريقة من قبل ضباط بروسيانيين جعلت بموجبه خدمة العسكر الموظف خمس سنين والرديف سبعا ومن دخل في أسنان العسكرية تسحب قرعته فان اصابته القرعة تلك السنة يؤخذ وان لم تصبه يترك الى السنة التي بعدها . فان لم تصبه مدة السنين الخمس يعفى من الخدمة . وقد قسمت البلاد العثمانية الى دوائر ردفية فأصبح للعسكرية نظام حقا . وفي حرب القريم ظهرت ثمرات عظيمة من هذا النظام . وقسمت الاجناد كلها الى ستة كان كل جند (اردو) فيه حين السلم ستة آلايات رجالة واربعة آلايات خيالة وألاي واحد مدفعي سيار فكان عدد الاجناد حين السلم هكذا : النظامية ١٥٠٠٠٠ ونحو من ذلك عدد الرديف بحيث يتكون من النظامية والرديف وقت الحرب ٣٠٠٠٠٠

وفي خط كلخانه يوجد نص على أنه يؤخذ للعسكر من غير المسلمين ولكن اقتضاءات الزمان منعت من ذلك

وفي عام ١٢٨٦ حدث تحوير في ترتيب العسكرية فجعلت مدة الخدمة ثلاثا للعسكر الموظف ، وستين لخدمة الاحتياطية ، وستا لخدمة الردفية ، وثمانيا للمستحفظية وكان عدد الاجناد في ذلك العهد هكذا : النظامية والاحتياطية ٢٣٧٠٠٠ والرديف ٣٥٠٠٠٠ أو يزيد على هذا المقدار . وكان عدد أجناد الدولة كلها في زمن محاربة

روسية ٧٥٩٠٠٠ ولكن لاستمرار الحرب ثلاث سنين وضياع كثير من الارواح تضعضع هذا الجيش ومست الحاجة بعد ذلك لتحويرات فيه ففي عام اربع وتسعين حول اسم السر عسكرية الى اسم نظارة الحربية وقسمت اللوازم والاستعدادات العسكرية الى شعب ودوائر وأعطت الاجناد شكلا آخر جديدا . وفي عام ثمان وتسعين اتي بجماعة من ضباط الالمان من صنوف مختلفة في الجيش الالماني وأخذت آراؤهم في الاصلاح العسكري وكان برأسهم كهر باشا . وبعد سنة جيء بالبكباشي فوندرغولج باشا فأرشد هذا الى طرق كثيرة للاصلاح العسكري بالرغم عما كان يحول بينه وبين الاصلاح من الموانع التي هي معهودة ومعروفة في ذلك العهد

الى هذا الرجل يعزى النظر في ترتيب الدروس أحسن ترتيب في المدرسة الحربية ، واليه يعزى السبب في تغيير طريقة القرعة ووضع قانون أخذ العسكر المعمول به الى عهدنا هذا

* *

« أما حرمان أبناء وطننا غير المسلمين من خدمة العسكرية مع أن لهم حقا بالشرف الذي يحصل من خدمة الاوطان فكان خطأ من حكومتنا لا يعفى عنه وكان من دواعي انكسار خاطر هؤلاء الشركاء في الوطن والاغرب من ذلك حرمان أهل هذه الطائفة من هذا الشرف ايضا

فمن موجبات الشكر أن أول شيء تفكرت فيه حكومتنا بعد التغير الجديد السعيد في الوطن هو الاسراع لدفع هذا الخطأ المنافي للقانون الاساسي

هذا هو تاريخنا العسكري ومنذ الآن سينال أبناء وطننا من غير المسلمين نصيبهم من شرف الدفاع عن حياض الوطن ، ويقفون مع زملائهم المسلمين صفاً واحداً أمام كل عدو معرضين حياتهم للمقاومة في سبيل مقصد واحد هو إعلاء شأن الرابطة الوحيدة التي تضم قلوب جميع العثمانيين حول وطنهم العزيز